الفصل الثانى

الضمير — الضمير والإرادة — تربية الضمير

يلاحظ الانسان أن فى أعماق نفسه قوّة تحذره فعل الشر اذا أُغرِى به، وتحاول أن تمنعه من فعله، فاذا هو أصرّ على عمله أحس بانقباض نفسه أثناء العمل لعصيانه تلك القوّة، حتى اذا أتم العمل أخذت هذه القوّة توبخه على الإتيان به، وبدأ يندم على ما فعل، كالطالب يحاول الغش فى الامتحان فيحس صوتا باطنيا يناديه ألا يفعل، فاذا لم يسمع لهذا الصوت وبدأ يغش أحس أن هذه القوّة تثبطه، فاذا استمرّ فى عمله أنّبته وندم وعزم ألا يعود.

كذلك يحس أن هذه القوّة تأمره بفعل الواجب، فاذا بدأ فى عمله شجعته على الاستمرار فيه، فاذا انتهى منه شعر بارتياح وسرور، وبرفعة نفسه وعظمتها، كالطالب يرى آخر مشرفا على الغرق فينقذه، فحين إنقاذه يشعر بتشجيع نفسه على المضىّ فى عمله فاذا أتم ذلك شعر بغبطة وسعادة.

هذه القوة الآمرة الناهية تسمى « الضمير »، وهى — كما رأيت — تسبق العمل وتقارنه وتلحقه، فتسبقه بالإرشاد الى عمل الواجب، والنهى عن الرذيلة، وتقارنه بالتشجيع على الخير، والتثبيط عن الشر، وتلحقه بالارتياح والسرور عند الطاعة والشعور بالألم والوخز عند العصيان .

هذا الضمير نشعر به كأنه صوت ينبعث من أعماق صدورنا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ولو لم نرج مكافأة أو نخش عقوبة، نرى البائس الفقير يجد مالا أو متاعا وهو أشد ما يكون حاجة الى مثله، ولم يكن رآه أحد إلا ربه، ثم هو يتعفف عنه ويؤديه الى صاحبه، فما الذى حمله على ذلك؟ لاشىء إلا الضمير يأمر صاحبه بعمل الواجب لا لمثوبة ولا عقوبة إلا مثوبة نفسه بارتياحها، وعقوبة نفسه بالندم والتأنيب .

وهذا الضمير طبيعى حتى فى الحيوانات الراقية، فنرى الكلب مثلا عنده نوع إدراك طبيعى للواجب، ويرقى هذا الادراك بمخالطته للانسان، حتى نراه أحيانا يفعل فى الخفاء جرما كأن يسرق شيئا من سيده، أو يخالفه فى أمر أمره به، فيظهر على الكلب حينئذ نوع من الاضطراب والقلق يعدّ جرثومة للضمير .

ونلاحظ كذلك جرثومة الضـمير فى الطفل الصـغير ، يعلوه الخجـل أحيانا لخطأ ارتكبه فتتبينه فى نظرته ، ويدلنا اضـطرابه وقلقه على أنه ارتكب خطأ — وينمو هذا الشعور بنمو الانسـان حتى يصل به الى حدّ أن يملأه الفرح والغبطة اذا هو أدّى الواجب ، ويذوب أسفا وندما اذا عصى أمر الضمير، وهذا الشعور تجده يتبع حالة الانسـان ، فهو فى حالة سذاجة عند المتوحش ، كشأنه فى حديثه وعرفه وحالته الاجتماعية ، فإذا رقى الإنسان رقى ضميره ، حتى قد يدفعه الى بذل نفسه دفاعا عن رأيه أو فى سبيل إصلاح قومـــه .

اختلاف الضمير — ليس الضمير هاديا معصوما يأمر بالخير دائما ، وينهى عن الشر دائما ، ولا هو يأمر الأفراد فى الأمم المختلفة أوامر واحدة متسـاوية فى القوة ، فإنا نرى أن الأمة التى تقدّر النظام فى الحياة تقديرا كبيرا يكون أبناؤها أشدّ إحساسا به ، وضمائرهم أقوى فى المطالبة باتباعه ، وعلى العكس من ذلك الأمة التى لا تؤمن بفضيلة النظام هذا الايمان .

وأفراد الأمة التى لا تسـترذل الكسل لدرجة كبيرة لا يؤنبهم ضميرهم تأنيبا شديدا اذا استسلموا للكسل .

بل الأمة الواحدة يختلف ما يأمر به ضميرها باختلاف العصور، فقد رأينا مثلا منذ سنين قلائل أن كثيرا من المصريين كانوا يوسعون مجال الخلف بين المسلمين والأقباط، وتستحثهم ضمائرهم على الدعوة الى ذلك، ويرتاح كل فريق بما يلقى من الخطب، ويكتب من المقالات، فى تأييد فريقه والطعن على الفريق الآخر، واليوم نرى أن هذه الدعوة من أكبر الجرائم وأعظم الشرور، ولا تطاوعنا ضمائرنا إذا أردنا أن نمس هذه الوحدة بسوء .

بل الفرد الواحد قد يأمره ضميره بشيء فى زمن ويأمره بعكس ذلك فى زمن آخر، كالطالب يأمره ضميره أن ينهمك فى القراءة والدرس من غير أن يراعى جسمه وصحته، فاذا درس قانون الصحة أو شعر بمرض فهم أن لجسمه عليه حقا ولعقله عليه حقا، وطالبه ضميره بأن يرعى صحته وعقله جميعا .

والسبب فى اختلاف أوامره أن الضمير يتأثر بعاملين كبيرين .

فيتأثر (أولا) بالحالة الاجتماعية للأمة وعرفها ودرجة رقيها، فالإنسان ينشأ فى أسرة تستحسن أعمالا وتستقبح أخرى فيتبعها فى استحسانها واستقباحها، ثم هو اذا خرج الى الحياة العامة تبادل مع الناس الأخذ والعطاء فيلتقط آراءهم فى الخير والشر، ويقلدهم

فى ذلك، ويسايرهم فيما يستحسنون وما يستقبحون، ويأمره ضميره أن يفعل كما يفعلون .

(ثانيا) يتأثر ضمير كل انسان بدرجة عقله وعلمه ، فكلما زاد علم الانسان ونما عقله ارتقى ضميره ، ذلك أن الخبرة والتجربة ومعرفته بنتائج الأشياء النافعة والضارة توسع عقله ، فيتبع ذلك ارتقاء ضميره ، حتى قد يأمره ضميره بعد هذه التجارب بما كان ينهاه عنه من قبل ، وينهاه عما كان يأمره به ، لأن عقله عرف من الحقائق ما كان يجهله ، بل هو اذا وصل الى درجة كبيرة من رقى العقل كان ضميره نابعا لعقله أكثر من تبعيته لتقاليد قومه ، واستطاع — اذا هو رزق وسائل الزعامة — أن يغير ما يستنكره من عادات قومه .

* * *

ومع أن الضمير يختلف باختلاف الأمم واختلاف العصور وأنه قد يخطئ أحيانا فى أمره ونهيه — كما رأيت — فإن كل إنسان ملزم باطاعة ضميره ، لأنه مأمور بعمل ما يعتقد أنه الحق لا بعمل ما هو حق فى الواقع ، فالذى يعتقد شيئا حقا ويأمره ضميره بعمله ملزم أن يطيعه ، وليس هناك مسئولية أخلاقية عليه اذا تبين خطأ ما أمره به ضميره ، غاية الأمر أنه يجب عليه أن

يضيء السبيل أمام ضميره بتوسيع عقله وتقوية فكره وتحريه الصواب، فإن هو فعل ذلك كان الضمير هاديا مرشدا، وكان له العذر اذا تبين خطأ ما أمر به ضميره .

الضمير والإرادة — لا قيمة للضمير يأمر وينهى اذا لم يُدْعَم بارادة تنفذ أمره ونهيه ، فقد يشعر الانسان بالواجب ويتأكد من أنه واجب ويأمره ضميره به ولكن يذهب كل ذلك هباء اذا لم يُمنح إرادة قوية تُخْرج هذا الأمر الى الوجود، فالإرادة هى القوة الفاعلة فى الانسان وبدونها تكون أوامر الضمير أحلاما وأمانىّ لا قيمة لها، ولذلك يقول بعضهم : " إن جهنم مرصوفة بالأمانى الطيبة" يريد بذلك أن الأمانى الطيبة اذا لم تبرزها الإرادة الى الوجود فأولى بها الجحيم لا الجنة، إنما يصلح للجنة الأمانى الطيبة التى حولتها الإرادة الى عمل ويقول الشاعر العربى :

من كان مرعى عزمه وهمومه روضَ الأمانى لم يزل مهزولا

قد تعترض أمام ما يأمر به الضمير عقبات، فالإرادة القوية تذللها وتشعر بارتياح من تذليلها والتغلب عليها .

وكما نحتاج الى الإرادة فى تنفيذ أوامر الضمير نحتاج اليها فى تنفيذ نهيه ، وذلك بمقاومة الميل الى الشرّ وصدّه والوقوف فى سبيله حتى لا يخرج الى الوجود .

والإرادة القوية سر النجاح فى الحياة — وفضائل الانسان وملكاته تظل فى سبات حتى توقظها الارادة، فمهارة الصانع، وقوة عقل المفكر، والشعور بالواجب ومعرفة ماينبغى وما لا ينبغى، كل هذا لا أثر له فى الحياة ما لم تحوله قوة الارادة الى عمل .

تربية الضمير — الضمير — ككل ملكات الانسان وقواه — تنمو بالتربية وتضعف بالإهمال ، فبعصيان الضمير يضعف أو يموت، شأنه فى ذلك شأن أديب يتذوق الشعر والأدب، فاذا هو أهمل قراءة الأدب وآشتغل « بالرياضة » ضعف ذوقه الأدبى حتى قد يصل الى درجة لا يدرك معها ما فى الأدب من جمال ، كذلك يعصى الانسان ضميره مرة فيحس بلذع شديد من جراء عصيانه ، فاذا تكرر منه العصيان أحس بلذع دون ما كان يشعر به عند أول مخالفة، ولا يزال الانسان يُتبِع السيئة السيئة حتى لا يشعر بأى نوع من اللوم والتأنيب، لأن صوت ضميره قد خَفَتَ وسلطانه قد ضعف — وكما يضعف الضمير بالعصيان يضعف بصحبة الأشرار وإطالة القراءة فى الكتب الساقطة، فكلا الأمرين يكرر منظر الشر أمام النفس حتى تعتاده ، وكلاهما يتحدث عن الشر حديث المستحسن فيتخدر الضمير ويخمد صوته .

ويحيا الضمير بمداومة طاعته ، وباستخدام الارادة فى تنفيذ أمره ونهيه وصحبة الأخيار وقراءة الكتب التى تدعو الى الفضيلة ، ومما يساعد على نموه قوانين البلاد ، فإنها ان كانت صالحة شاركت الأخلاق فى الأمر بالخير ، فتساعد على حياة الضمير وتزيد فى سلطانه .

خير شيء فى الإنسان ضميره ، فهو " الدليل " الذى يهدى سبيل السلام .